۱۶۵۳۵

مجله	الازهر
تاریخ نشر	ربیع الاخر ۱۳۹۷
شماره	۴ سال ۴۹
شماره مسلسل	
محلّ نشر	قاهره
زبان	عربی
نویسنده	مصطفی محمد الحدیدی الطیب
تعداد صفحات	۶۴۰ - ۶۳۴
موضوع	آیة الله فی سبأ - حضارة العرب - سد مأرب سیل العرم
سرفصلها	
کیفیّت	
ملاحظات	

دراسات قرآنية :

آية الله في سبأ - حضارة العرب
سد مأرب - سيل العرم

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى محمد الحديدي الطير

قال الله تعالى :

« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له » .

الآيات : ١٥ ــ ١٩ من سورة سبأ .

البيان

سبأ أمة عربية عريقة المجد والحضارة ، يعيش في أرضها الآن اخواننا اليمانيون ــ من سلالتهم ــ وهؤلاء ينتسبون الى جدهم سبأ الذى انحدرت من سلالته قبائلها وفصائلها .

جاء في حديث شريف عن فروة ابن مسيك قال : (أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت يا رسول الله أخبرنى عن سبأ ، أرجل هو أم امرأة ، فقال : هو رجل من العرب ، ولد عشرة : تيامن منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة ، فأما الذين تيامنوا فالأزد ، وكندة ، ومذحج والأشعريون ، وأنمار ــ ومنهم بجيلة ــ وأما الذين تشاءموا فعاملة ، وغسان ، ولخم ، وجذام) .

وفى شرح قصيدة عبد المجيد بن عبدون لعبد الملك بن عبد الله بن بدرون الحضرمى البستى ، أن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أول ملوك اليمن .

وكانت مأرب (بوزن مسجد) عاصمة لمملكة سبأ . وكانت مساكنهم فى هذه المملكة آية عظيمة على وجود الخالق سبحانه ، وعلى ما تمتاز به مقدوراته جل وعلا من جمال بديع ، كما أن تدمير هذه المساكن العامرة الجميلة واغراق كثير من أهلها لعصيانهم ، آية على أنه عزيز ذو انتقام .

وقد شرح الله آيته فى مساكن سبأ بقوله « جنتان عن يمين وشمال » والمراد من الجنتين جماعتان عظيمتان من البساتين ، جماعة عن يمين مساكنهم ، وجماعة عن شماله — كما قاله قتادة — واطلاق الجنة على كل جماعة منهما ، لتقارب جناتها وتضامها كأنها جنة واحدة .

وقيل ان المعنى أن كل واحد من أهل سبأ كان له جنتان ، احداهما عن يمين مسكنه ، والأخرى عن يساره .

وعلى أى حال فان قراهم ومساكنهم كانت فى ريف رائع ، وخصب ممتع ، تحيط بها البساتين والجنان ، ويفوح من أزاهيرها العبير ، وتتدلى من أغصانها الثمار ، واستحقت لذلك أن يقول الله تعالى لهم فى شأنها « كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » (١) .

أى قال الله لسبأ على لسان نبيه الذى بعثه اليهم : كانوا من رزق مولاكم الذى رباكم بنعمه وأخرج لكم من أرضه هذه النعم مباحة لكم ، وما لأحد من خلقه يد فى انبات زرعها ولا انشاء شجرها ، « أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » وعليكم أن تقابلوا رزق ربكم بشكره على نعمته ، بالايمان الصادق ، والعمل الصالح ، والذكر المستقيم ، فهذه البلدة المحوطة بالبساتين والبقول والأرزاق ، بلدة طيبة الهواء ، عذبة الماء وافرة النعم ، حسنة المناخ ، قليلة الأسقام وربكم الذى رزقكم هذه النعم وطلب شكركم عليها ، رب عظيم الغفران لذنوب الشاكرين التى تفرط منهم ولكن القوم لم يصغوا لدعوة نبيهم اياهم الى شكر المنعم سبحانه « فأعرضوا » عنها وأسروا على اعراضهم .

« فأرسلنا عليهم سيل العرم » .

قال المغيرة بن حكيم وأبو ميسرة : العرم جمع عرمة ، وهى كل ما بنى أو سنم ليمسك الماء ، ويقال لهذا

---

(١) من الاتفاقات النادرة أن لفظ (بلدة طيبة) بحساب الجمل واعتبار هاء التانيث باربعمائة كما ذهب اليه كثير من الأدباء وقع تاريخا لفتح القسطنطينية : قاله الألوسى .

البناء بلغة الحجاز المسناة ، وعن ابن عباس وغيره هو اسم للوادى الذى كان منه السيل ، وبنى السدفية : اهـ (١) .

روى أنه بنى فى عهد بلقيس ، وكانت مياه المطر تتجمع فى مكان بعيد عن أرضهم وتأخذ سبيلها اليهم فى ثلاثة أيام ، فتفيض عليهم وتغرق أرضهم ، فأمرت بلقيس ببناء سد بين جبلين ذى فتحات وأبواب فوقها قناطر ،وعدد هذه الفتحات اثنتا عشرة فتحة ، تصب كل فتحة منها فى نهر، أى أن تلك البلاد كان بها اثنا عشر نهرا متفرعة عن مخارج هذا السد ، يقول المؤرخون : انه بنى بالصخر القار ، ولعلهم يريدون بكلمة القار مادة سوداء تشبه القار فى لونها ، ولكنها أشد ثباتا وقوة منه بحيث تحتمل ضغط الماء ولا تتحلل ، وقيل : ان الذى بناه هو حمير أبو القبائل اليمنية ، وقيل : بناه لقمان بن عاد ، ورصف أحجاره بالرصاص والحديد ، وكان طوله فرسخا .

وكان هذا السد يسمى سد مأرب، نسبة الى مدينة أثرية يقوم السد الى جوارها ، وقد صور هذا السد الطيار المصرى الأول (أنيس باشا) رحمة الله تعالى عليه ، وكان ذلك فى عهد الامام يحيى حميد الدين امام اليمن ، ونشرت الصحف وقتئذ صور بقاياه الى جوار مدينة مأرب، وكان منظرها ينم عن عظمة مهندسيه وعراقتهم فى فن البناء ، والعبقرية فى الهندسة ، فى هذا الوقت الواغل فى القدم ، حيث كان الغربيون وقتئذ يشبهون العجاوات ، ويعيشون كالسوائم .

وقد دعتهم هذه المدنية الى اقامة حياتهم على أرفع طراز من الرفاهية والسعة والنعمة ، حتى كانت المرأة العادية تخرج وعلى رأسها المكتل فارغا ، وتعود به مليئا من الثمار التى تساقطت فيه من الأشجار أثناء سيرها — كما قاله بعض المؤرخين .

(١) وقيل العرم بمعنى الصعب الشديد ، واضافة سيل اليه من اضافة الموصوف الى صفته على رأى من أجازها .

ولما أعرض هؤلاء المترفون عن شكر نعم الله تعالى ، وأصروا على الاعراض بعد أن وعظهم نبيهم انتقم الله منهم ، فأرسل عليهم سيلا شديدا قويا حطم سد مأرب القوى العظيم وترتب على ذلك غرق بساتينهم وقراهم وموت كثير منهم ، وبدلهم بذلك ما قص الله تعالى حيث قال : « وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل » .

والأكل الثمر ، والخمط الحامض أو المر ، والأثل ضرب من الطرفاء — على ما قاله أبو حنيفة اللغوى والسدر — كما قال الأزهرى — سدران : سدر لاينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول ، وله ثمرة عفصة لا تؤكل ، وهو الذى يسمى الضال ، وسدر ينبت على الماء ، وثمره النبق ، وورقه غسول يشبه شجر العناب : اهـ .

واختلف فى المراد منه هنا ، فقيل الثانى ، ووصف بالقليل لأنه لو كثر لكان نعمة لانقمة فان ثمره مما يطيب أكله ، وانما أوتوه تذكيرا للنعم الزائلة ، لتكون حسرة عليهم ، وقيل المراد به المعنى الأول ، لأنه هو الأنسب بالمقام ، ولكن صاحب هذا الرأى لم يذكر حكمة لوصفه بالقلة ، والظاهر المعنى الأول .

وخلاصة معنى هذه الجملة : وأذهبنا جنتيهم بسيل العرم ، وأتينا بدلهما بجنتين ذواتى ثمر حامض أو مر ، وصاحبتى ضرب من الطرفاء وقليل من شجر النبق جزاء لهم على اعراضهم عن شكر ربهم ومبالغتهم فى الكفر .

« وهل نجازى الا الكفور » أى وما نجازى هذا الجزاء الشديد المستأصل الا المبالغ فى الكفران أو الكفر « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة » .

بعد أن حكى الله تعالى فى الآيات السابقة ما أنعم الله تعالى به على أمة سبأ فى مساكنهم ومواضع اقامتهم ، وأنهم كفروا بنعمة الله تعالى ، فعاقبهم باغراق بساتينهم الجميلة بسيل العرم ، وابدالهم بها أشجارا لا غذاء فيها ولا جمال الا القليل ، بعد أن حكى الله ذلك ،

جاءت هذه الآية الكريمة وما بعدها لبيان ما أنعم به عليهم من النعم فى أسفارهم ومتاجرهم ، وأنهم لما كفروا بتلك النعم ولم يقدروها قدرها عوقبوا بالحرمان منها .

والمراد بالقرى التى بارك الله تعالى فيها : قرى اقليم الشام ، فقد بارك فيها بكثرة أشجارها وثمارها والتوسعة على أهلها، وعن ابن عباس أنها قرى بيت المقدس — وهو قريب من المعنى الأول — وقيل غير ذلك ، والمعول عليه هو المعنى الأول ، حتى قال ابن عطية : ان اجماع المفسرين عليه ، والمراد بالقرى الظاهرة التى كانت بين مساكنهم وبين الأرض المباركة : القرى المتقاربة — كما قال قتادة ، ومعنى ظهورها أن من كان فى احداها تظهر له التى تليها لشدة تقاربها ، وقال المبرد : القرى الظاهرة المرتفعة على الآكام والظراب (أى الروابى) وتعتبر أشرف القرى وأعلاها شأنا ، وقال غيره : ظاهرة بمعنى معروفة ، وتعرف القرية لحسنها ورعاية أهلها لمن يمر بها ، ومعنى تقدير السير فيها ، أن نسبة بعضها الى بعض على مقدار معين محسوب ، بحيث يعرف من وصل الى قرية أنه سيصل الى التى تليها بعد قدر معين من الزمان أو من المقاييس المعروفة وقتئذ .

والمعنى : وجعلنا بين أهل سبأ وبين قرى الشام المباركة الكثيرة الخيرات ، قرى ظاهرة على الروابى والآكام ، أو متقاربة بحيث تظهر كل قرية لأهل القرية التى تليها ، وجعلنا نسبة بعضها الى بعض على مقدار معين زمنا ومقياسا ، بحيث يعلم كل مسافر بالتجربة متى يصل الى مقصده ، ويعلم المقاييس التى يمر بها ، وكانت درجة القرب بينها الى درجة أنهم يسيرون فيها ليالى وأياما آمنين ، فلا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات، فان من يفكر فى الاعتداء ، يخشى وصول النجدة للمعتدى عليه من مكان قريب .

والأمر فى قوله تعالى « سيروا فيها ليالى وأياما آمنين » اما على حقيقته على لسان نبى لهم ، واما على سبيل المجاز ، بأن ينزل تمكينهم من السير المذكور وتهيئة أسبابه منزلة أمرهم

بذلك ، وعلى كل فالأمر للاباحة ، « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا » الآية

النفس البشرية مولعة بتغيير الواقع وان كان خيرا لها مما تريده، فهؤلاء لما طالت بهم مدة التنعيم . بطروا وملوا ما هم فيه ، وآثروا الذى هو أدنى على الذى هو خير — كما فعله بنو اسرائيل ، حيث طلبوا العدس والبصل بدلا من المن والسلوى ، وقالوا لموسى عليه السلام « لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » .

وهؤلاء السبئيون فعلوا مثل ذلك ، حيث لم تعجبهم بلادهم المتقاربة ، فقالوا لو كانت متاجرنا أبعد ، لكان ما نجلبه منها أشهى وأغلى ، فاجعل البلاد يا ربنا متباعدة تفصلها المفاوز والقفار ، وهم فى طى هذه الرغبة ، يضمرون أن يتفاخروا فى أسفارهم بركوب الرواحل الفارهة ، والتزود بالأزواد الفاخرة، والتكبر على الفقراء العاجزين عن ذلك ، فعجل الله تعالى لهم الاجابة بتخريب القرى المتوسطة ، وجعلها بلقعا لا يسمع فيها داع ولا مجيب.

وقولهم «ربنا باعد بين أسفارنا»: اما أن يكون بلسان المقال ، واما أن يكون بلسان الحال .

فان كفرهم بنعم الله ينادى بتعجيل العقوبة لهم بالحرمان منها بتخريب العامر ، وابعاد المقاصد ، فكأنهم طلبوا ذلك بألسنتهم .

والمعنى الاجمالى للآية : فقال أهل سبأ بلسان المقال أو الحال : ربنا باعد بين أماكن سفرنا حتى نرتحل اليها ، يطول ارتحالنا ، وقد ظلموا أنفسهم ببطرهم على نعمة الله، وتعريض أنفسهم للحرمان منها ، فجعلناهم بما أنزلناه بهم من العقاب أحاديث يذكرها الناس على سبيل الاستغراب ، وذلك أننا مزقناهم كل تمزيق وفرقناهم فى الأرض كل تفريق ، ان فيما ذكر من قصتهم لآيات عظيمة لكل صبار عظيم الصبر عن الشهوات ودواعى الهوى ، فانها عبرة لكل معتبر ، وذكرى لكل

مدكر ، وعلامة على طريق الحياة يهتدى بموعظتها الصابر الشكور .

ولقد حدث هذا التمزيق بارسال سيل العرم عليهم ، واغراق بلادهم ، فحملهم ذلك على الارتحال ، فارتحل أولا جفنة بن عامر الى الشام وأولاد قيلة ــ الأوس والخزرج ــ الى يثرب (وهى المدينة) وأبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وأزد السراة الى السراة ، وأزد عمان الى عمان ، وأولاد مالك بن فهم الى العراق ، ونزل أولاد ربيعة بن حارثة ابن عامر بن عمرو تهامة ، وسموا خزاعة : الى غير ذلك من القبائل والفصائل ، وفيهم ضرب المثل : تفرقوا أيدى سبا ، وذهبوا أيدى سبا ــ وروى أيادى سبا ــ والمراد من الأيدى والأيادى الأولاد ، لأنهم أعضاد الرجل لتقويه بهم ، وفى المفصل : الأيدى الأنفس كناية أو مجازا ــ قال فى الكشف : وهو حسن .

وفى الكشاف : لحق غسان بالشام ، وأنسار بيثرب ، وجذام بتهامة ، والأزد بعمان ، وفى التحرير : أن قضاعة نزلت بمكة ، وأسد بالبحرين وخزاعة بتهامة .

وقد تقدم فى أول هذا المقال حديث تفرقهم فى جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم لفروة بن مسيك ، وأرجو أن يكون فى حديثهم عبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » والله تعالى أعلم .

مصطفى محمد الحديدى الطير

قال على ــ كرم الله وجهه ــ : لا يعدم الصبور الظفر وان طال به الزمن .

وقال ايضا : الصبر مطية ، لا تكبو وسيف لا ينبو .

١٢٥٣٥